

درويش بقوله : « ولعل التزامي هنا لم يعد مبدأ أو وجهة نظر أو طريقة ، وإنما صار نبضا في الدم » (٢٠) . كما شهدت تطورا في تعبير الشاعر الفني ، حيث خرج في معظم قصائد الديوان عن عمود الشعر الكلاسيكي . يقول درويش : « وهكذا ، أرى اني خطوت خطوة نحو المزج بين الاشياء مما استدعى صيغة أكثر مرونة تتسع لحركة المزج ، اسفرت عن انزال ضربة ، غير مقصودة لذاتها ، ببناء القصيدة الكلاسيكي . وقد حدث ذلك بما يشبه التلقائية ، اذ لا خيار لك وسط هذه الحركات والرموز في ان « تقرر » شكلا ما فالعملية هنا هي التي اخذت اطارها وشكلها » (٢١) .

ثم كانت المرحلة الثانية من مراحل مسيرة محمود درويش الشعرية، حيث عانى الشاعر هزيمة حرب حزيران ، فعمدت تجربته الشعرية بالنار وبالدماء ، فجاء ديوانه « آخر الليل » ١٩٦٧ ، الذي كتب قصائده بعد الهزيمة ، أكثر اعماله الشعرية نضجا حتى هذه الفترة ، وأرفعها من الناحية الفنية . ويعبر محمود درويش عن تجربته الشعرية في هذه المرحلة بقوله : « وأنا شخصا ، وأنا قابع في السجن تعطلت اعصابي . وبعد خروجي لم أجرؤ على القيام بمحاولة الكتابة ، لان التشنج والرؤية الغارقة في الدم والحروق لم تنتح لي بلورة المدخل الذي سأنفذ منه الى مثل هذا الموضوع المهلك ... بعد شهر وجدت نفسي اكتب بهدوء ظاهري هذه القصائد التي يحتويها ديوان « آخر الليل » وقد سهّل علي العملية ، الى حد ما ، ادراكي انه لم يتبق لي شيء الا العقيدة والكلمة . فلماذا تسقطان ؟ وهما وسيلتناي للصدائقة مع الحياة والتعويض الباقي . لقد استطعت في هذه القصائد ، واقول ذلك بنبوة فخر ، ان انقذ انسانيتي من الموت ، في تلك الفترة العنيفة التي هددت انسانية الانسان بأفدح الاخطار . وعندما انفجر الحلم ، وجدت اني ما زلت متشبثا باذيل تراث : انسانيتي » (٢٢) . من هنا استطاع الشاعر ان يقف يتحد امام الموت ، رافضا ان يكون جزءا من الماضي الميت ، ومنطلقا برؤيا جديدة للبحث عن شعر جديد . لذلك كان الموت الذي أحاط بالشاعر سبيلا الى ولادة جديدة اكتسبها في هذا الديوان ؛ يقول :

وليكن
لا بد لي ان ارفض الموت ،
وان كانت أساطيري تموت
انني أبحث في الانقراض عن ضوء وعن شعر جديد
آه .. هل أدركت قبل اليوم
ان الحرف في القاموس يا حبي بليد (٢٣) .

هكذا انتصر الشاعر على الموت بالعقيدة ، دون ان تتدخل عقيدته بشكل-ظاهر ، اذ لم تعد القصائد نظما لشعارات سياسية ، يقول محمود درويش : « وفي الحوار القاسي او الصراع بين الموت والحياة انتصرت على الموت دون ان اجعل ايدولوجيتي تتدخل ظاهريا » (٢٤) من هنا كان التطور في مفهوم الشاعر للالتزام ، فأصبح الانتماء الحزبي تجربة تغني رؤيا الشاعر ، فكفت القصيدة عن كونها خطبة سياسية ، وخرجت صور الطبيعة في « آخر الليل » عن محدوديتها ، وتعددت دلالاتها فاكتسب بعضها دلالات رمزية ؛ كقوله مثلا :

كان الخريف يمر في لحمي جنازة يرتقال
تمرا نحاسيا تفتته الحجارة والرمال
وتساقط الاطفال في قلبي على مهج الرجال
كل الوجوم نصيب عيني .. كل شيء لا يقال ..
ومن الدم المسفوك اذرعة تناديني تعال ! (٢٥)